إلحاد وهمى وتمرد حقيقى: عصر الالتباس!

الالتباس هو عنوان هذا العصر فى مصر. وهذا عنوان عريض تتفرع عنه عناوين عدة أهمها التخويف عبر الإفراط فى استخدام «فزّاعات» تقليدية وأخرى مستحدثة، وتغييب العقل لكى يُحدث هذا التخويف أثره الأقصى ليشتد خوف الناس على حياتهم أو على بلدهم فينسون حريتهم وحقوقهم، وخلط الأوراق لكى يسهل تصديق ما لا يمكن أن يدخل العقل بدءاً من عالم السياسة ووصولاً إلى عالم الجان.

وعندما يصل الالتباس إلى ذروته أو يقترب منها، وينتشر الخوف وتُخلط الأوراق ويغيب العقل، يكف الإنسان عن التساؤل سعياً لفهم ما يحدث له وحوله، ويتوقف عن الاندهاش الذى يُحرك العقل فلا يثير شىء استغرابه.

وفى مثل هذه الحالة، ينتعش العقل الخرافى بسماته البدائية، ويقترن انتشار خرافات تتجاوز الإنس إلى الجان بشيوع التخريف فى كثير من المجالات. ولا عجب، والحال هكذا، فى تنظيم حملة مصنوعة على إلحاد لا يعرف من يشنون هذه الحملة عليه معناه، وإطلاق هجمة على من يوصفون بأنهم ملحدون تنطوى على مشاهد عبثية بامتياز مثل غلق مقهى بدعوى أنهم يتجمعون فيه، وإعلان مسؤولين كبار فى محافظة القاهرة «بيان النصر المبين» فور إتمام عملية استهداف هذا المقهى بنجاح منقطع النظير!

وتبدو هذه الحملة بأشكالها المتعددة بالغة الدلالة على كل ما يتعلق بحالة الالتباس السائدة، فلا بأس من إضافة بند جديد إلى قائمة «الفزّاعات»

التى صار لدينا منها ما يكفى قارة كاملة ويزيد. ولا مجال للتساؤل عن حقيقة وجود هذا الإلحاد الذى تزعم مؤسسات رسمية أنه ينتشر ويزداد. ولا محل للسعى إلى فهم حقيقة هؤلاء الموصوفين بأنهم ملحدون، سواء من صدر عنهم ما يُعتبر إنكاراً للأديان، أو من أبلغ عنهم «إخوة صغار» يتطوعون للعمل فى خدمة «الأخ الكبير» الذى يراقب الشعب ليتأكد من «استقامته» واصطفافه فى الطابور.

ولا تبقى ضرورة، أو أهمية، فى مثل هذا الوضع لفرز الأوراق التى يُراد خلطها، والتمييز بين إلحاد حقيقى فلسفى يقوم على أسس معرفية وتمرد مجتمعى- ثقافى تزداد الأشكال المعبرة عنه بمقدار ما يتنامى الالتباس. فالإلحاد فى أساسه إنكار للأديان فى إطار رؤية مادية بديلة للكون والحياة، واستناداً بالتالى على بحث أفضى إلى تشكيل هذه الرؤية بما ينطوى عليه من معرفة. ويتطلب ذلك مستوى ثقافياً مرتفعاً لم نر أثراً له لدى من وصفوا أنفسهم بأنهم ملحدون، الأمر الذى يجعلهم وغيرهم من النوع نفسه متمردين يريدون أى لافتة للتعبير عن تمردهم.

فليس ما يوصف بأنه إلحاد الآن إلا شكلاً من أشكال التمرد الذى ينتشر فى أوساط قطاعات متزايدة من الشباب رداً على استمرار إقصائهم وتهميشهم، وتعبيراً عن الضياع الذى يعيشون فيه والاغتراب الذى يشعرون به فى مجتمع هم الأغلبية فيه (أكثر من 60% من المصريين تحت سن الثلاثين).

وينطوى هذا التمرد كذلك على استياء من الرسالة الضمنية التى تصل الشباب وهى أن «دولة العواجيز»، التى ظن كثير منهم أن ثورة 25 يناير تكفى لإنهائها، مكتفية بذاتها، ولا مكان لهم فيها إلا من تستخدمهم «ديكوراً» لتغطية شيخوختها وإعطاء انطباع بانفتاحها عليهم.

والحال أنه فى الوقت الذى يغرق فيه قطاع من الشباب فى حالة بؤس تدفع بعضهم إلى الانتحار بشكل مباشر، أو بطريقة غير مباشرة عبر ركوب مغامرة السفر بحثاً عن عمل وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم سواء فى مياه البحر المتوسط قبيل شاطئه الشمالى، أو فى أتون الصراع الأهلى- السياسى المشتعل فى ليبيا، يتنامى غضب قطاع آخر منهم يتجه بعضه إلى التمرد بأشكاله الأكثر سلبية، بعد أن ضاق المجال العام ولم يعد يتسع لشكله الإيجابى حتى فى تجلياته الاجتماعية وليس السياسية.

ولذلك، فلو أننا الآن فى حالة طبيعية، ولو أن الالتباس لم يبلغ هذا المبلغ المهول بما يقترن به من خلط للأوراق وتغييب العقل وانتشار للخرافة والتخريف، لأسرعنا إلى إعادة فتح المجال العام أمام الشباب بدلاً من الانغماس فى أوهام مواجهة إلحاد بعضهم.

ولو أن حالة العقل العام أفضل نسبياً، لاشتد فزعنا من العواقب الوخيمة لتهميش الشباب والتضييق عليه وغلق المجال العام فى وجهه، بدلاً من الانشغال بخلق مزيد من فزّاعات وهمية وتضخيم أخرى لها أساس، وأدركنا أن تخويف الناس من الحرية يمكن أن يحقق المستهدف منه لبعض الوقت، ولكن ليس فى كل وقت.